أسامة بن منقذ وشعره

للاستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٣ —

لم يكن معروفا من شعر أسامة سوى ما تفرق فى كتبه، كالاعتبار والمنازل، ولباب الآداب، وما تفرق فى كتب مؤرخيه كخريدة القصر، والروضتين، فى أخبار الدولتين، وتاريخ الاسلام للذهبى، وشذرات الذهب، وجهرة الاسلام، ذات النثر والنظام، ولكن أسامة كان له ديوان جمعه بنفسه، وعنى به من بعده ابنه مرهف، وكان صلاح الدين مشغوفا به كما ذكرنا، وقد رآه ابن خلكان، وذكر أنه بأيدى الناس، وقد عثرت دار الكتب على نسخة خطية من هذا الديوان.

وقد رتب أسامة ديوانه على حسب الأغراض، فباب للغزل وآخر لشكوى الفراق، وغيرهما للوصف، إلى غير ذلك من أغراض الشعر الثنائى ولكن ديوانه قد خلا من الهجاء، ويظهر أنه قد أصر على ألا يكون فى شعره هذا اللون برغم الدوافع التى كانت تسوقه إلى أن يهجو، حتى لقد قال:

ظلمت شعرى، وليس الظلم من شيمى
يطيعنى حين أدعوه، وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللئام بما
فيهم، فأزجره عنهم، وأثنيه
وليس من خلق ثلب الفنى وإن
جنى، ولا ذكر ذى نقص بما فيه

وفى ذلك مسحة من ترفع الامارة، التى تحول بينه وبين النزول إلى مستوى التشاتم والمهاترة.

ولما اختار أسامة أن يرتب ديوانه على الأغراض، كان يجزىء القصيدة الواحدة، فيضع غزلها مثلا فى باب الغزل، ومديحها أو فخرها فى باب المديح أو الفخر، وكان هو يشير إلى ذلك حين يعرض قصائده، ولهذا النظام فائدته فى تتبع الدراسة الفنية لكل فن من فنون الشاعر على حدة، وإن كانت الحاجة تدعو، عند دراسة بناء القصيدة، إلى دراسة أجزائها كلها، لمعرفة الجو الذى توحى به، وإدراك مدى الصلة التى تربط بين عناصرها.

ويبدو لأول ما تقرأ الديوان أن أسامة لم يدون كل ما قاله من الشعر، لأنه لم يرض عن كل ما صدر منه، فحذف منه ما لم يرقه، حيث يقول:

كلما رددت فى شعرى النظر ... بان ضعف الذى فيه، وظهر
ليس يرضينى، ولا يمكننى ... جحد ناقد شاع منه، واشتهر
فأجيل الفكر فى تقليله ... فاذا قل اختصرت المختصر
وبه أفر إلى ذى كرم ... إن رأى مافيه من عيب ستر

وذلك يدل على تطلع أسامة إلى مثل أعلى، كان يتمنى أن يصل إليه مستوى شعره، ولابد أن كان لذلك أثره، وأخذه إياه بالتقويم والتنقيح، حتى ظهر شعره فى هذا الثوب من القوة والجزالة، مما يذكرنا بشعر الفحول الذين سموا بفنهم عن أن يكون مظهر التلاعب بالألفاظ، أو الجرى وراء محسن لفظى، من غير أن يكون فى البيت معنى جليل، أو خاطر سام، أو شعور صادق، أما أسامة فلديه ما يقوله، فى أسلوب قوى، وعبارة رصينة.

وتتدفق خواطر أسامة فى قصيدته، ويرتبط بعضها ببعض، حتى يصبح البيت لبنته، فى بناء ملتحم مؤتلف، خذ مثلا قوله:

لا تجز عن الخطب ... فكل دهرك خطب
وحادثات الليالى ... مملة، ما تغب
تروح سلما وتغدو ... على الفتى وهى حرب
ولا تضق باصطبار ... ذرعا إذا اشتد كرب
فصبر يومك مر ... وفى غد هو عذب
كم صابر الدهر قوم ... فأدركوا ما أحبوا
وكل نار حريق ... يخشى لظاها ستخبو

ترى فيه التحام الخواطر وتسلسلها ، ولاتجد ذلك فى مقطوعاته القصيرة فحسب ، بل فى قصائده الطويلة أيضا ، حتى ليخيل إليك أحيانا أنك تقرأ قطعة منثورة ، لا قصيدة منظومة ؛ ويطول نفس أسامة أحيانا حتى تبلغ القصيدة تسعين بيتا ، كتلك التى كتبها على لسان نور الدين ، يمدد فيها وقائعه مع الفرنج .

وينهج أسامة فى كثير من الأحيان المنهج التقليدى ، فيبدأ قصائده بالغزل ، حين يفتخر ، أو يمدح ، أو يشكو ، وحينا يبدأ موضوعه من غير مقدمة غزلية ، كهذه القصيدة التى بعث بها إلى معين الدين أنر ، وقد لقى الفرنج ، وهزمهم ، فقال أسامة :

كل يوم فتح مبين ونصر واعتلاء على الأعادى وقهر

ومضى فى قصيدته :

ولكثرة ما اطلع أسامة على الشعر القديم ، كان يضمنه بعض قصائده ، حتى قد اتهمه بعض سامعى شعره بالسرقة من غيره ، وليس فيما فعل أسامة سوى التضمين الذى تراه فى قوله يخاطب معين الدين أنر :

وأنت أعدل من يشكى له ، وله شكية أنت فيها الخصم والحكم
وما ظلمتك تنسى حق معرفتى إن المعارف فى أهل النهى ذمم
لكن ثقاتك ما زالوا بفشهم حتى استوت عندك الأنوار والظلم

وفى هذه الأبيات تضمين من قصيدة المتنبى : « وأحر قلباه ممن قلبه شبم » . أما قصيدة أسامة التى مطلعها :

أطاع الهوى من بعدهم وعصى الصبر
فليس له نهى عليه ولا أمر

فقد ضمنها من شعر أبى فراس ، كهذا البيت ، ومن شعر المتنبى ، وأبى سخر الهذلى ، وغيرهم ، وليس التضمين بكثير من شعر أسامة ، وأكثره ماجاء فى هاتين القصيدتين .

تلمس فى شعر أسامة الجلال والوقار ، فلا هزل فيه ، ولا مزاح ، إلا قليلا نادرا ، وليس فى باب الملح الذى عقده ، فضلا عن قصره ، سوى قليل من الفكاهة ، ولعل من أرقها قوله ، وقد كان له جار من الأمراء ، يعرف بابن طليب ، وقعت فى داره نار فاحترقت ، فقال أسامة :

انظر إلى الأيام ، كيف تقودنا قسرا إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بدراه نارا ، وكان هلاكها بالنار

— ٤ —

وحدت الأحداث الكبرى التى مرت بأسامة صداها فى شعره ، وصورت آثارها فى نفسه تصويرا قويا ، ولعل من أقوى هذه الآثار فى نفسه ، اضطراره إلى أن يفارق وطنه الأول « شيزر » الذى شهد مدارج طفولته ، وملاعب صباه ، وملاهى شبيبته ، وقد وجد أسامة البقاء فى هذا الوطن شقاء لا يطيقه ، بعد أن جفاه عمه ، وقلب له ظهر المجن ، فكتب إلى أبيه قصيدة يحدثه فيها عما يعتلج فى صدره من الهم ، ويشكو إليه ما كدر صفاء عيشه ، من الغدر ، وما ناله من سوء العقوق ، ويقول له :

أشكو إلى عليائك هما ضاق عن كتمانه صدرى ، وما هو ضيق
وطوارقا للهم أقربها الكرى وتلظ بى صبحا ، فما تتفرق

وينبئه بأنه قد صمم على فراق دار الهون ، مادام الحقد عليه قد وجد سبيله إلى قلوب ذوى قرباه ، فيقول له :

دعنى وقطع الأرض دون معاشر كل على لقصير جرم يحنق
تغلى على صدورهم من غيظهم فتكاد من غيظ على تحرق
أعيا على رضاهم ، فيئست من إدراكه ، ما النجم شىء يلحق
قد أفسدوا عيشى على وعيشهم فأنا الشقى بهم ، وبى أيضا شقوا
فضل الأقارب برهم وحنوهم فإذا جفونى فالأباعد أرفق

وكان أسامة راضيا عن نفسه بهذا الارتحال ، الذى نأى به عن الضيم ، وبعد به عن أن يسام الخسف والهوان ، واستقبل بعده عن وطنه ، راضيا به ، مادام ذلك فى سبيل احتفاظه بأنفته وعزة نفسه :

السام خسفا ، ثم لا آبى ، فلست إذا أسامه
هيهات ، لا ترضى المعالى صاحبا يرضى اهتضامه

وألقى أسامة نفسه فى المعارك تحت لواء عماد الدين زنكى ،

ولم ينغص عليه مقامه يومئذ سوى وشاة أو هروا صدر أبيه عليه، فاضطر أسامة إلى أن يرسل إلى أبيه استعطافا، يزيل به من نفسه أثر هذه الوقيعة التي لم يحدثنا التاريخ عنها شيئا، فكتب أسامة إليه :

ياويح قلبي من شوق يقلقله ... إلى لقائك ماذا من نوالك لقى
وناظر قرحت أجفانه أسفا ... عليك في لجة من دمعه غرق
وبعد مابي، فاشفاق يهددني ... بشوبه رأيك بالتكدير والرنق
وأن قلبك قدرانت عليه من ... واشين بي جفوة يهماء كالغسق
أما كفاهم نوى داري وبعدك عن ... عيني، وفرقة إخوان الصبا الصدق
وأنني كل يوم قطب معركة ... درية السمر والهندية الذلق
أغشى الوغى مفردا من أسرتي وهم ... هم إذا الخيل خاضت لجة العلق
وموضعي منك لا تسموالوشاة له ... ولا يغيره كيسي، ولا حمقي

وكان موقفه من دمشق حين نبت به، كموقفه من وطنه الأول، فارقها غير راض باحتمال الهوان، برغم ما ألسه في شعره من حب لمعين الدين، يقول له :

ولست آسى على الترحال من بلد ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
تعلقت بحبال الشمس منه يدي ... ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

أما حياته بمصر، فقد مر عليه بها من تقلبات الزمان، وعبر الأيام، وتنقل الملك والسلطان، ماصح أن يقول معه :

تحسون من عمري مضت لم أتعظ ... فيها، كأني كنت عنها غائبا
وأنت على بمصر عشر بعدها ... كانت عظاة كلها وتجاربا
شاهدت من لعب الزمان بأهله ... وتقلب الدنيا الرقوب عجائبا

ولعل الأزمات السياسية التي مرت به في مصر، كانت تملأ صدره بالهم حينا، والنقمة على الزمن الذي دفع به إلى مصر، فيقول :

بامصر، مادرت في وهمي ولا خلدي ... ولا أجالتك خلواتي بأفكاري
ما أنت أول أرض مس تربتها ... جسمي، ولا فيك أوطاني وأوطاري

لكن إذا نحت الأقدار كان لها ... قوى تؤلف بين الماء والنار

ولكن أسامة برغم هذه الأزمات التي كانت تدفعه حينا إلى الثورة، والتي لابد أن تلم بمن يخوض لجة السياسة - وجد في مصر ما كان يصبو إليه من مال ومجد، كان شديد الأسف عليه، حين أفلت من يده، تحس بذلك في قوله :

نلت في مصر كل مابرتجي الآمال من رفعة، ومال، وجاه
فاسترددت ماخولتني، وما أسرع نقص الأمور عند التناهي
كنت فيه كأنني في منام ... زال منه ما مر عند انتباهي

فلا جرم، كان شديد الحنين إلى مصر، بعد أن فارقها، وكان يتمنى أن يلبي دعوات الملك الصالح التي وجهها إليه مرة بعد أخرى يدعوه فيها إلى العودة والعيش معه. وهنا يحسن بي أن أقف قليلا أبين رأي الملك الصالح فيما اتهم به أسامة من المشاركة في قتل الظافر، فالصالح يبرىء أسامة براءة تامة من هذا الإثم، ويراه نقي الصفحة، طاهر اليدين، وهاهو ذا يرسل إلى أسامة، يدعوه إلى مصر، ويحدثه عن الوزير عباس الذي قتل ابنه نصر الخليفة الظافر :

على أنه قد نال بالغدر من بنى ... نبي الهدى مالم ينله بنو حرب
وهل نال منهم آل حرب وغيرهم
من الناس فوق القتل والسبي والنهب
غدا والغا كالكلب ظلما وحزبه
دماءهم لاحاطه الله من حزب
وياليته لو كان فيه من الوفا
لما لكه بعض الذي هو في الكلب
وحاشاكم ما خنتم العهد مثله
ولا لكم فيما جرى منه من ذنب
ومن مثل ماقد نالكم من دنوه
يحاذر أن تدنو الصحاح من الجرب

كان لكثرة الترحال أثر في شعر أسامة، فكثيرا ما شكا الفرقة والاغتراب، وكثرة جوبه البلاد، وتحس في هذا الشعر لوعة الحرمان، وألم الشوق إلى الوطن المفارق، والآل النائبين،

فتسمعه يقول :

أهكذا أنا باق العمر مغترب
ناء عن الأهل والأوطان والسكن
لا تستقر جيادي في ممرسها
حتى أروعها بالشد والطعن

ويقول :

أين السرور من الروع بالنوى أبدا ، فلا وطن ، ولا خلان
عيد البرية موسم لعويله وسرورهم فيه له أحزان
وإذا رأى الشمل الجميع تزعزعت في قلبه الأمواه والنيران

فكان هذا الرحيل الدائم ، مصدر ألم لأسامة ، يؤرق حياته ، وينغص عليه عيشه ، وكان له أثر في مسح شعره بمسحة من الحزن والأسى ، وكثرة حديثه عن الوداع والفراق .

كما كان لتبدد ثروته ، ونهب بعضها عقب الحوادث التي جرت بعد مقتل الحافظ وغرق بعضها في البحر ، عند خروج أسرته من مصر — أثره البالغ من نفسه ، وأثره القوي في شعره ، شكا ذلك إلى الملك الصالح ، وطلب منه المعونة ، فقال له :

أنا أشكو إليك دهرا لجاعو دي ، وأعراه ، فهو يبس سليب
وخطوبا رمى بها حادث الدهر سوادي ، كلهن مصيب
أذهبت تالدي ، وطار في الطاري ، فضاع الوروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر ذا غريق في ، وذا منهوب

ويظهر أن الفقر قد عضه بنابه حينا من الدهر ، حتى رأيناه يصف نفسه بأنه لا يفترق في حقيقة الأمر عن سائليه الذين يهرعون إليه ، ظانين فيه الغنى واليسار .

ولكن مستورى كظاهر حالهم فما حيلتي ، والحظ حرب الفضائل

وكان أكبر ما يؤلمه في حالة العسرة التي ألمت به ، هو أن شمت به أعداؤه ، فأخذ يطمئن نفسه بأن سوف يستعيد مع الأيام ماله المفقود ، وحينا يقول لهم :

متى رأتني الشامتون ضرعا لنكبة تعرقني عرق المدى
هل يزني الخطب سوى وغرى الذي كان مباحا للنوال والندى

فاذا نزلت كارثة زلزال شيزر ، فذهبت بملك أهله وبأهله ، أخذ يبكيهم ، وينتدب حظهم ، ويرثي منازلهم ، ويسأل الزمن عن ماضي مجدهم ، ويتألم لبقائه من بعدهم ، ويمدح ما اتصفوا به من سامي الخلال ، وطيب الفعال ، وبرغم ما كان بينه وبينهم من إحن وبغضاء ، عز عليه فقدهم ، وتمنى أن لو استمرت الحياة ، واستمر ما بينه وبينهم من فرقة ونفور ، فقد كانوا برغم ذلك مصدر فخاره ، وينبوعا لقوته واعتزازه ؛ قال أسامة من قصيدة طويلة يصف فيها هذا الخطب ، كيف كان له شديد الوقع في نفسه ، فهو يستطيب الأسى ، ثلاثين سنة يتأسى بها :

قالوا : تأس ، وما قالوا بمن ، وإذا
أفرددت بالرزء ، ما أنهك أسوانا
ما استدرج الموت قوما في هلاكهم
ولا تخرمهم منى ووحدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب
وأحمل الخطب فيهم عز أوهانا
وأقتدي بالورى قبلي ، فكم فقدوا
أخا ، وكم فارقوا أهلا وجيرانا

ويدفع عن نفسه أن يظن به ظان وقوفه من هذه الكارثة وقوف من لا يعنى بها ، ولا يأبه لها ، فيقول :

لعل من يعرف الأمر الذي بمدت بعد التصاقب من جراه دارانا
يقول بالظن إذ لم يدرسا خلق ولا محافظني من حان أوبانا :
أسامة لم يسؤه فقد معشره
كم أوغروا صدره غيظا وأضغانا
ومادرى أن في قلبي لفقدهم
نارا تلظي ، وفي الأجفان طوفانا
بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم
وإن أرونى مناواة وشنآنا
كانوا سيوفي إذا نازلت حادثة
وجنتي حين ألقى الخطب عريانا

وختم تلك القصيدة الباكية بالدعاء لهم ، فقال :

سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحا وريحانا
وأيس الله هاتيك المظام وإن
بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا

ولما علت سن أسامة، ووهن منه العظم، أخذ يشكو طول العمر، وتثقل الحياة عليه، فحينا يجد في الموت أعظم راحة تنقذه من ضعفه، وحينا تنهال عليه ذكريات شبابه وصباه، ويوازن بين ضعفه اليوم، وقوته في عهده السالف، فقد كانت كفه مألفا للسيف والرمح، فصارت تحمل العصا، يمشي بها كما يمشي الأسير مثقلا بالكبل، وحينا يأسف على أنه لم ينل في شبيبته من المتع واللذاذ، ما كان جديرا أن يظفر به في عصر الشباب، إذ يقول:

وما ساءني أن أحال الزما ن ليلي نهارا، وجهلي وقارا
ولكن يقولون: عصر الشبا ب يكون لكل سرور قرارا
فوجدي أني فارقته ولم أبل ما يزعمون اختبارا

ومن أكبر ما أثر فيه يومئذ أنه رزق ابنة، بعد أن تجاوز أربعا وسبعين سنة، فوجد اليتم ينتظرها، وكان تفكيره في يتمها وضعفها مجلبة لحزنه وبكائه:

رزقت فروة، والسبعون تخبرها أن سوف تيتم عن قرب وتفعاني
وهي الضعيفة، ما تنفك كاسفة ذليلة تعتري دمعي وأحزاني

وصور لنا أسامة نفسه محنيا على عصاه، قد تقوس ظهره، وصارت العصا وترا لهذا القوس، يمشي مشي الحسير، قد آده ثقل السنين، فهو يمشي كالقيد بعثاره، أو كالأسير في قيده، فلا جرم كان شديد الضيق والبرم، حين يرى نفسه عاجزا عن تلبيته داعي الحرب إذا دعاه:

رجلاي والسبعون قد أوهنا قواي عن سعيي إلى الحرب
وكنت إن ثوب داعي الوغى لبيته بالطعن والضرب

وكان شديد الضيق والبرم أيضا حين يرى نفسه وحيدا، قد مضت لداته وأترابه، فعاش غريبا في جيل غريب عنه، فكان يتأوه قائلا:

ناء عن الأهلين والأو طان، والأتراب ماتوا
ولبئس عيش المرء فا رقه الأحبة واللبدات
فالام أشقى بالبقا ء، وكم تعذبني الحياة

للكلام بقية

أحمد أحمد بدوي

خواطر في كتاب الله

تربية الأمم في القرآن

للاستاذ محمد عبد الله السمان

الواقع أننا لسنا في حاجة إلى مسلمين يحملون كتاب الله في جيوبهم، ولا إلى مسلمين يعلقونه فوق صدور أبنائهم، ولا إلى مسلمين يتلونه تلاوة لا تتجاوز حناجرهم. ولا إلى مسلمين يتخذون منه الأحجبة والتعاويذ والأدعية - ولكنا في حاجة إلى مسلمين ينفذون مبادئه، ويحققون مطالبه، ويتفهمون معانيه، وتشرب نفوسهم ما استوعبه من تربية راقية عالية.

وحاجة الأمم إلى التربية لا تقل عن حاجتها إلى المال والقوة والعدة - ذلك لأن الأمة لا يمكنها أن تشق طريقها إلى المجد، وتسلك سبيلها إلى العلاء، إلا إذا نالت نصيبا وافرا وقسطا كبيرا من التربية السليمة، ولذلك كان اهتمام القرآن الكريم بتربية أمته اهتماما بالغا يسددها في خطواتها ويقومها في أعمالها.

اهتم القرآن بتربيتها على الأخوة المؤسسة على الاتحاد والتعاون والصفاء والإيثار: «إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم - وأصلحوا ذات بينكم - وتعاونوا على البر والتقوى - ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم - واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - ولا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون».

ونهاها عن المواقف التي تجر إلى النزاع، وتزرع في قلوب أبنائها الشقاق:

«اجتنبوا كثيرا من الظن - ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا - لا يسخر قوم من قوم - ولا تلمزوا أنفسكم - ولا تنابزوا بالألقاب».

واهتم بتربيتها على العزة والحرية والنفور من الذلة والعبودية: «إن الذين توفيهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم؟